الفصل الأول:

منهاجٌ أساسيّ جديد لِعصْرٍ جديد

هايدي هايز جاكوبز

أتسـاءل مـا إذا كان كثيـر من طلابنا يشعـرون كما لو كانـوا مسافرين عبر الزمـن في أغلب الأحيـان عندما يدخلون من بوابة المدرسة كلَّ صباح، فهل يشعـرون عند دخولهم العَتَبة أنهم يدخلـون عالمـاً يحاكي ثمانينيّـات القرن العشرين؟ وفـي نهاية اليوم الدراسـيّ، هل يشعرون وكأنهـم عـادوا إلى القرن الحادي والعشريـن؟ يكمن التحدي بالنسبة إلينـا بصفتنا تربويين فـي مواءمـة احتياجات طلابنا مع العالـم الذي يتغير بسرعة كبيـرة. ولمواجهة هذا التحدي، فإننـا في حاجة إلى أن نكون متعلّمين إستراتيجيين من خلال توسيع نظرتنا، وتحديث طرقنا، ومناحينا.

يعـزّز كتـاب ويجينز وماكتـاي (Wiggins & McTighe) الاستيعاب مـن خلال التصميم *Understanding by Design*, 2005 بديهيـة تحظـى بالاحتـرام، تشيـر إلـى أنّ علينـا تحديـد «مـا الـذي نريـد لطلابنـا أن يعرفـوه، ويستطيعـوا فعلـه» قبـل البدء بنشـاط كتابـي قصير فـي الغرفـة الصفية، حيـث يطلب المؤلفـان إلينا التوقـف والتأمـل والقيام بخيـارات ذكية، وممارسـة عمليـة التصميم العكسي، من خلال البـدء بالتفكير في الهـدف التعليمي النهائي، ويطلبـان أيضـاً أن نكـون متأمليـن، وذوي تفكيـرٍ استباقـيّ، لكـن التصميم العكسـي لا يعني الرجوع إلى الوراء.

obeikandl.com

مـا يهمّنـي هنا هو أننا أحياناً نتجاهـل أكثر الخطوات أهمية، وهـي النظرة المستقبلية، ونصبح مقيدين بما نعرف وبما نستطيع فعله. بعبارة أخرى، هناك كثير من المدارس والقادة الذين يصوغون بيانات رسالتهم بنيّة حسنة، ولكن بأفكار عفا عليها الزمن شبيهة بأفكار القرن الماضـي، دون أن يدركوا أن طريقة التكرار، واستخـدام المناهج نفسها مراراً وتكراراً لم تعُد مفيـدة. لذا، فمن المهـم أن نصبحَ باحثين نشطين، ومطوِّريـن مبدعين لاتجاهات وابتكارات جديدة.

ومـن أجل تحديـد السياق لفصـول هـذا الكتـاب، أودّ مشاركتكم في بعض المشكلات والموضوعات المضادة، والمتعلقة بالسبب الذي يجعلنا نبدو عاجزين أحياناً خلال ما يفترض أن يكـون عصراً حيويّاً ومثيراً في التعليم، وأيضاً بعض النقاط الأساسيّة التي سيناقشها فريق المؤلفين المميز.

المنهاج الجامد يرسّخ العادات القديمة

قبل الخوض في هذا الموضوع، نتساءل: ما جذور الممارسات المدرسية والمنهاج العتيق؟ أعلنت لجنة العشرة[1] المعينة في اجتماع للجمعية الوطنية للتعليم عام 1892م نتائجها في ساراتوغا سبرينغـز فـي نيويورك في الرابع من ديسمبر من العام اللاحـق، والتقرير موجود على الموقع الإلكتروني (http://tmh.floonet.net/books/commoften/mainrpt.html).

ومـع الانتقال من عصر الزراعة إلى عصر الثـورة الصناعية في تلك الأيام، ازداد عدد الأطفـال الذين يذهبون إلى المدارس. وأدرك المربّون في الولايات المتحدة في نهايات القرن التاسع عشر، ضرورة وضع معايير لعملية التعليم.

كانت تلك الحِقْبة زاخرة بالنزاعات واختلاف وجهات النظر التربوية، وأساليب التدريس وطرائق تنظيـم المدارس، وطبيعة المنهاج، وقد فضّل بعض المعلمين في ذلك الوقت التفكير الناقد، في حين فضّل آخرون الحفظ عن ظهر قلب، وكانت إحدى الفلسفات تنظر إلى مدارس الثانوية في الولايات المتحدة على أنها مجرد مؤسسات لتقسيم الطلاب إلى فئتين؛ فئة تلتحق

1) لجنة العشرة: مجموعة عمل من المربّين، أوصت عام 1892م، بمعايير موحّدة للتعليم في الولايات المتحدة، وقد حاولت اللجنة التوصل إلى حل للفلسفات التربوية الكثيرة التي سادت في تسعينيّات القرن العشرين، وقد أصدرت توصيات عدة خاصة بنظام التعليم والموضوعات الدراسية، التي سرعان ما طُبّقت عبر البلاد- المراجع.

بالجامعـات، وأخرى تلتحـق بسوق العمل والمهن (كان هذا التقسيـم يستند في بعض الأحيان إلـى أمور كالعِرق أو الخلفية الاثنية)، وقـد اصطدمت هذه الفلسفة بوجهة نظر أخرى حاولت توفيـر مقرّرات مقنّنة للطلاب كافـة، فعلى صعيد المنهاج الدراسـي، دارت نقاشات اقترحت جعل اللغة اللاتينية واليونانية القديمة من أسس المنهاج الدراسي، أو تأكيد المواد والدراسات العملية، وقد أدّت هذه النقاشات إلى إصدار تقرير نهائي من لجنة العشرة، يوصي بتلقّي الطلاب جميعهم- سواء من ينوون الالتحاق بالجامعة أو من سيلتحقون بسوق العمل- تعليماً واحداً، وأن يدرسـوا المنهاج نفسه، وأن تستمر العملية التعليمية لمدة اثنتي عشرة سنة مقسمة على النحو الآتي: ثماني سنوات للمرحلة الابتدائية (التي تتضمن الآن المرحلة المتوسطة)، وأربع سنوات للمرحلة الثانوية.

لا يـزال تأثير قرار اللجنة الصادر في القـرن التاسع عشر مستمراً حتى يومنا هذا، ففي المرحلـة الثانويـة، استند البرنامج الأكاديمي إلـى اللغة الإنجليزية، والتاريـخ، والموضوعات الاجتماعيـة، والتربيـة الوطنية، والرياضيـات، والأحياء، والكيمياء، والفيزيـاء. وقد أدى هذا التوجه عمليّاً إلى إصدار قرارات تتعلق بالمدرسة الابتدائية؛ لأنها مرحلة تحضير لتلقّي منهاج المرحلـة الثانوية، ولم يكن هذا منحى تطوريّاً. ومن الجديـر بالذكر أنّ عالِم النفس التطوريّ الشهيـر جان بياجيه Jean Piaget قد ولد عام 1896م، بعد سنوات قليلة من تكوين اللجنة، ولم يكن ممكناً إعادة توجيه تصوّر اللجنة لخصائص الأطفال النّمائيّة، وما يمكنهم تعلّمه.

وفي الحقيقة أن المدارس لم تكن مصمّمة للأطفال، ولكنها أظهرت نموذج تنظيم المصانع الناجم عن تصاعد الانتشار والتوسع الاقتصادي والصناعي في المرحلة ما بين 1897م و1921م، وهـو النموذج الذي طُبِّق على التعليم والأعمـال Feldman, 1999.وقد تجذّر التوحيد القياسي، وثبت في نظام الدراسة لمئة و ثمانين يوماً دراسيّاً وفقاً للتوقيت الزراعي agrarian calender، ولسـت ساعات يوميّاً، يدرسـون فيها ثمانية موضوعات، ولا يزال هذا النظام يسيطر بقوة على المعلمين والأطفال والمجتمعات.

على الرّغم من مرور قرنٍ من الإبداع والتجارب والأفكار المدهشة منذ صدور قرار اللجنة، فإنّ النظام ما زال مؤثراً حتى يومنا هذا، ويمكن للمرء أن يرى التأثير المستمر للجنة العشرة مـن خلال الاطلاع علـى أيّ دليل مدرسيّ. لذلـك، فإنّ مفهوم ما هي المدرسـة، لا يحتاج إلى إصلاح، بل يحتاج إلى إصلاحات **جديدة**.

obeikandl.com

هنــاك جهود في الوقــت الحالي من مشرّعين وتربويين تبــدو - ظاهريّاً - وكأنها تهاجم التعليم المسؤول المتعلق بطلاب الأمة، ومن أبرزهم حركة المعايير.

خمسون ولاية: أيُّ حركة معايير؟

مــن أبرز ما تأثــرت به مدارس الولايــات المتحدة خلال العقد الأول مــن القرن الحادي والعشريــن تأكيد إنشــاء معايير واضحة ومحددة لضبط أهداف تعلّميّــة عُليا. وغالباً ما أسمع المصطلح اللافــت (معايير، لا معايــرة) standards,not standardization. حيث يوحي هذا المصطلــح أنّ المعلمين في حاجة إلى مساحة من حرية العمل؛ لمساعدة طلابهم على تحقيق الأهــداف التعليمية، لكــن هذه المساحة تضيق غالبــاً لتسيطر المعاييــر الجامدة على الغرفة الصفية، حيث يقع المعلمون فريسة الإصرار المفرط على الاختبارات المتدنية المستوى والمعايير القديمــة. صحيح أنّ الغاية قد تكــون مساعدة المدارس على تحقيق الأهــداف التعليمية، لكن المعلميــن يشعرون في الحقيقة بــأنّ المهم هو التدريس من أجــل الاختبارات، على الرغم من التشكيك في عدم وجود قيمة فعلية لها.

ومن الخرافات السائدة أن حركة توحيد المعايير وجدت لإعداد الطلاب لمستقبلهم، وما يُحيّرنــي هنــا هو عن أيّ حركة يتحدثون؛ إذ لا توجد حركة وطنية لتوحيد المعايير في الولايات المتحدة، بل هناك خمسون ولاية، تخيل خمسين فريقاً لكرة السلة يلعبون، ولكل ملعب سلة معلقة فــي أماكن مختلفــة وبارتفاعات مختلفة. وعليه، كيف ستصنّف هذه الفِرَق؟ كيف يمكن تحديد الفائز؟ إنّ الاختلافاتِ بين الولايات الأمريكية في المعايير الحقيقية وعددها، ومتطلبات الاختبار، واسعــةٌ لدرجة صادمة، وكثيراً ما يبدو أنّ معظــمَ موضوعات القياس الحقيقية في الرياضيات نســخٌ مُختزلة لما نتج من الكتب المدرسية التي ظهرت فــي خمسينيّات القرن العشرين، حيث كانت الاختبارات هي الاختيار من متعدد.

دعنــا نتأمل في هذه النتيجة الواردة في أحد تقاريــر القياس الوطني لتقدم التعليم التي قارنت كفاية معايير الولاية بمعايير هذا القياس:

> هنــاك علاقــة ارتبــاط سلبيّ قويــة بين نســب الطلاب الذيــن يجتازون معاييــر النجاح فــي الولاية ودرجــات القياســ الوطنــي لتقدم التعليــم المكافئة لهــذه المعايير، وهــذا يشير إلــى أنّ سبب عدم التجانســ الملاحــظ فــي نسب الكفايــة للولايات يمكــن أن تكــون الاختلافات في صرامــة معاييرها
>
> .National Center for Education Statistics, 2007, p. iii

ولهذه الاختلافات تداعيات سلبية مباشرة وكبيرة على نظام الاختبارات.

obeikandi.com

ولأكون أكثـر صراحة، هناك بعض الولايات ذات معايير أقل من معايير الولايات الأخرى المطلوبـة لتلبيـة شروط قانـون عدم إهمـال أي طفـل (No Child Left Behind (NCLB. في مقالة نشرتها صحيفة **نيويورك تايمز**، أشارت سوزان سولني Susan Saulny, 2005 إلى اتساع الاختلافـات بين القياس الوطني لتقدم التعليم والولايات المختلفة، وقالت: «توضح المقارنات مدى التباين في تعريف (الكفاية) من ولاية إلى أخرى، حيث تضع كلّ ولاية اختباراتها، وتفرض معايير أداء خاصة بها».

وعندمـا يتعلـق الأمـر بالتعليـم، فـإنّ الولايات المتحـدة ليسـت متحدة فعـلاً؛ فأنظمة التعليـم فـي كلّ واحدة منهـا تبدو كأنها في عوالـم لا تلتقي. ولكن هناك قضيـة كبيرة أخرى، وهـي أنّ المشكلـة لا تكمن فـي المعايير الفضفاضة فحسـب، بل في تأكيد كثيـر من الولايات الاختبـارات السهلـة المختزلة. ففي الوقت الـذي تستخدم فيه إحدى الولايـات طرائق قديمة فـي مجالات التعلم كلّهـا تقريباً، نجد أنّ ولاية مجاورة تستخدم أسلوبـاً أكثر حداثة. لنفترض أنّ طالبـاً مـا كان يدرس تاريـخ ولايته مدة ثلاث سنوات، ثم انتقلـت عائلته إلى ولاية مجاورة، فالتحـق بمدرسة جديدة سيدرس فيها مدة عامين موضوعات عالمية عن السياسة والاقتصاد والقضايـا التاريخية فـي أنحاء العالم جميعها، فـأيّ ولاية عندئذٍ تُعِدُّ هـذا الطالب للمستقبل بصورة أفضل؟

إننـا في حاجة إلى اتخاذ قـرارات وخيارات مختلفة، وهذا ما يفعلـه واضعو السياسات، والقـادة التربويـون بحيـث يؤثر فيمـا إن كان هـذا الطالب سيصبـح متعلماً وواعيـاً ومواطناً مؤهـلاً لخدمة بلده وعالمه. يؤكد توني واغنـر Tony Wagner أنّ تهيئة الطلاب لأوضاع العمل المستقبليـة، يتطلـب تدريبهـم على استخـدام عقولهم استخدامـاً مثاليّاً بدلاً مـن اختبارهم بصورة مختصرة Wagner, 2008, p. 8. أنا لا أدعم الفكرة القائلة بوضع منهاج وطني موّحد، لكنّـي أعتقد وجود أساليب أخرى، مثل اعتماد عدد من المناهـج المعدّة إعداداً جيداً، لتختار الولايـات المختلفة مـا يناسبها منهـا. إنّ الجهود الفرديـة والطاقة الجبّـارة المبذولة لإعداد مناهج في كلّ ولاية على حدة جهود مكررة لا طائل تحتها.

obeikandl.com

علامات التقدم

توجد بعض التوجهات المثيرة للاهتمام؛ حيث كوّن مجلس القيادات المدرسية في الولايات لجاناً لتطوير معايير قومية للقراءة والرياضيات. إضافة إلى ذلك، تعمل مجموعة عمل على تطوير بعض الكفايات العامة لتتبناها الولايات المختلفة، وسوف يصدر عن هذه المجموعات وثائق في السنوات القليلة القادمة، وسوف تخضع للمراجعة الدقيقة أيضاً، وعلى الرّغم من ذلك، وما دامت الولايات المتحدة مستمرة بالنظر إلى التعليم على أنه من اختصاص الولاية فقط، فستجد المدارس الحكومية أنها مقيدة بالجغرافية التي ستحدد مستقبلها، وأنّ مجلس المدارس المحلية له السلطة الاستثنائية على أيّ توجه تتخذه المدارس. ويبدو أنّ وزارة التعليم في كلّ ولاية سيكون لها التأثير الأكبر في مجالس إدارات المناطق التعليمية، والسياسات التي ستصدر عنها في السنوات المقبلة. وبعد تسجيلنا لبعض المشكلات والقضايا، من المهم الاعتراف بوجود إشارات واعدة في بعض وزارات التعليم في الولايات المختلفة، تلعب دوراً رياديّاً في تطوير سياسة مناهج تناسب القرن الحادي والعشرين.

في ولاية نيوجيرسي، مثلاً، وُضعت ثلاثة أهداف لضمان حداثة المعايير: (1) تلبّي التوجهات العالمية (2) توظف أدوات القرن الحادي والعشرين الرقمية وشبكات المعلومات (3) تحدد نقاط التلاقي المهمة بين التخصصات المختلفة التي لها تطبيقات واقعية في عالم اليوم. وقد لوحظ وجود اهتمام كبير في مراجعة الولاية لأطر المناهج والمعايير لتوضيح العمل كاملاً بناءً على مجموعة من مبادئ الممارسات الهادفة، بما في ذلك الفهم الطويل الأمد، والأسئلة الجوهرية الهادفة، وإتقان خريطة المعايير، والقراءة والكتابة المتوازيتان، والقياس التكويني، والكفايات اللازمة للمهن المستقبلية.

ومن الأمثلة الأخرى، الشروط والمتطلبات الإبداعية التي وضعتها ولاية رود آيلاند لبورتفوليو (الملف الشخصيّ) للتخرج، حيث يُطلب إلى كلّ طالب أن يطوّر ملفّاً رقميّاً لعمل يختاره بنفسه ويطابق المعايير. وقد بدأت هذه العملية عام 2003م بالقوانين الخاصة بالمدرسة الثانوية التي اعتمدها مجلس الأمناء، وأصبحت ممارسة معتمدة عام 2008م، وهذا يعني أن على كلّ طالب - قبل الحصول على شهادة الثانوية - أن يثبت استحقاقه لها بعد أن عمل جاهداً منذ مرحلة الحضانة. (انظر الفصل التاسع لمزيد من التفاصيل عن منحى المساءلة الخلّاق هذا).

obeikandl.com

كانت وزارة التعليم في ولاية هاواي سبَّاقة أيضاً قبل غيرها من الولايات في تزويد مدارسها جميعــاً ببرنامج يعتمد على شبكة الاتصالات، وبنية تحتية مناسبة للتواصل، ويعود ذلك جزئيّاً إلــى جغرافية الولايــة المقسّمة إلى جزائر عــدّة، وهذا ما جعل شبكة الاتصــالات بديلاً رائعاً للرحلات الجوية باهظة الثمن لحضور الاجتماعات التعليمية في الولاية. وكانت إدارة التعليم في هاواي قد أنتجت مقررات دراسية مصوّرة للتطوير المهني والمؤتمرات عن طريق جهاز الصوت والصورة (الفيديو) قبل سنوات عدّة، من أيّ ولاية أخرى للتواصل بين المناطق في الجزيرة.

ومن المؤكد أن هناك نماذج متفرقة أخرى للإبداع، لكنّ كثيراً من وثائق المعايير قديمة بطريقــة لافتة للنظر، ولمّــا كان اهتمام التعليم في الولايات المتحدة محليّــاً، فإنّ هذا الكتاب يحاول إثارة النّقاش الدائر بأفكار محددة للإفادة منها، عندما نشرع بمناقشة قائمة الخيارات والأساليب التربوية والمنهجية للقرن الحادي والعشرين.

تحديث المنهاج وتطوير نماذج جديدة من المدارس

يحتاج المنهاج **الأساسيّ** الجديد إلى المراجعة والاستبدال الفعلي بالمحتوى والمهارات والقياسات القديمة خيارات أكثر حداثة.

ويمكن للخطوات والإستراتيجيّات المعروضة هنا أن تجعل المدرسة تؤكّد تحديث مجموعة مــن عناصــر المنهاج الحالــي بخيارات أكثر قــوة وجاذبية، علاوة على أنــه يمكن إدخال هذا المنحى الآمن إلى ثقافة المدرسة تدريجيّاً، وبصورة لا تثير أيّ ردود فعل سلبية أو رافضة. إنه نموذج نموّ أكثر من كونه نموذج تغيير؛ ففي الأغلب يكون التغيير في المدارس مؤقّتاً وسطحيّاً، فــي حين يكون النّموّ عميقــاً وإيجابيّاً. ويتعين على أعضاء أيّ مجتمــع تربوي محترف الالتزام بالنمو، فقد أثبت النموذج المذكور في هذا الكتاب أنه مجموعة من الممارسات المفيدة لتطوير منهاج يستجيب لمتطلبات القرن الحادي والعشرين.

الحاجة إلى نماذج مدارس جديدة

تستدعــي دراسة ما يحتاج أن يكون جديداً وجوهريّــاً في المنهاج، بالضرورة، مراجعة ودراسة مماثلــة وجريئة للمكان الذي يدعى المدرسة. هنــاك أربعة مكوّنــات أساسية للبرنامج تؤثر في

openkandari.com

المنهاج، هي: الجدول الزمني (الطويل والقصير الأمد)، وطريقة توزيع الطلاب في مجموعات، وفريق العاملين، واستخدام الفضاء (المكاني والافتراضي). ونظراً إلى أن المنهاج مدمج في هذه البنى البرمجية، فإنها تعيق تنفيذه أو تدعمه. لذا، لن تكون تغييرات المنهاج وحدها كافية. إذ يخيّم الإحباط على المعلمين عند سعيهم إلى التعديل والتغيير والمراجعة ضمن الحدود الضيّقة لبنى القرن التاسع عشر، ويمكن أن تؤدي هذه الجهود إلى مشكلات أكثر سوءاً مع انتشار عدم الرضا بين المعلمين والطلاب، فالتعليم يتعلق بالنمو ولا يتعلق بخلل طارئ.

إن كنّا نحاول الانتقال إلى خيارات مناهج أكثر جوهرية، فعلينا إجراء تحوّلات مقابلة ضمن هـذه المكوّنات البنيوية الأربعة، إنني أرى التغيير الرئيس في هذه الهياكل هو التحدي الأهم. مثلاً، لأننا محكومون بالعادة بصفتنا بشراً، فقد اعتدنا على أن تكون مرحلة الدراسة ثلاثة عشر عاماً ابتداءً من الحضانة حتى الصف الثاني عشر، مع أنني آمل توضيح أنّ هذا النظام قديم ومحبط وسلبيّ، إضافة إلى حقيقة أنّ قضاء المعلمين والطلاب في المدرسة الساعات نفسها يومياً ترسّخ نوعاً من الرتابة والتكرار في الحياة الأكاديمية، يضاف إلى ذلك أنّ التصميم الفعلي للفضاء المكاني للغرف الدراسية، يحدّ من أنواع الخبرات التعلّمية التي يمكن للطلاب المرور بها، ويحدّ أيضاً من إمكان التفاعل الإيجابي بين المعلمين. نحن نعلم أنّ طريقة تقسيم الطلاب إلى مجموعات من فئات عمرية مختلفة، وما يرافق ذلك من تجميع مدروس لمعلمين يهتمون بهؤلاء الطلاب، قد أثبتت فاعليتها، لكننا ما زلنا نعزل المعلمين عن الطلاب ضمن الغرف الصفّية المغلقة. وفي الحقيقة إن مصطلح العزل ضمن الغرف المغلقة قد يوحي بوجود كوّة أو فجوة نرجسيّة تبعدنا عن الآخرين؛ فنحن معتادون على العزلة على أنّها جزء من عاداتنا المدرسية، وربما يكون هذا الانعزال عن العالم الأوسع، هو السبب وراء ترك كثير من الطلاب المدرسة، أما كثير منهم ممن يظلّون في المدرسة، فينسحبون منها ذهنيّاً وعقليّاً. لذا، فإنّ العادات القديمة لهيكل المدرسة في حاجة إلى تغيير كي تجاري العصر الذي نعيش فيه.

يجب أن يدعم الشكلُ الوظيفةَ التربوية لا أن يقودها؛ فهذه الأشكال التي نضع مناهجنا فيها، لها علاقة كبيرة بالصعوبات التي يواجهها مخططو المناهج عند تطوير فرص معاصرة لطلابنا، لدينا حتى الآن منهاج يخضع للجداول المدرسية، وأنماط توزيع المجموعات والمساحات التي كانت سائدة منذ ثلاثينيّات القرن الماضي. ويجب أن يتبع الشكل الوظيفة أيضاً لا أن يقودها، ولدينا الآن أكثر من أي وقت مضى صور جديدة حقيقية لنتعامل معها، لكن لا يبدو أنها قادرة

بعد على دحر الهياكل التقليدية المقيدة وأخذ مكانها، والحقيقة أنّ مجرد أنني أستطيع الدخول إلى البريد الإلكتروني، وخرائط المنهاج، والخطط، من أي مكان في العالم هو أمر مدهش بحد نفسه، لكننا مع ذلك ما زلنا نرى حافظات المنهاج تضمّ رزم الورق على رف مكتب المدير.

كلّ ما أتمناه أن نختبر بعض الاتجاهات والافتراضات السائدة في مجتمعاتنا وفي تفكيرنا، ونحن نشرع في مهمة تصميم مناهج جديدة ومدارس جديدة.

الخرافات التي تكوّن رؤانا العملية عن المدرسة

نعمل في أفضل الحالات وفقاً لمعتقدات وقيم تظهر بوضوح في مؤسساتنا ومناهجنا وأساليب التدريس. وأود الإشارة هنا إلى ثلاث خرافات سائدة أثبتت أنها عوائق أمام إحداث تغييرات حيوية في المنهاج، وفي برامجنا المدرسية. وفي المقابل، سوف أطرح في الفصول اللاحقة مجموعة من المبادئ بدلاً من هذه الخرافات لتكون نقاط انطلاق باتجاه منهاج القرن الحادي والعشرين.

الخرافة الأولى: الأيام الغابرة الجيدة لا تزال صالحة إلى الآن. يحتفظ كبار السن بذكريات إيجابية عن المدرسة في أيام طفولتهم وشبابهم، ويشعرون بالارتياح في إعادة تكرار البيئة المدرسية نفسها للأجيال اللاحقة. ربما يتيح لنا الإبقاء على الصورة القديمة للمدارس فرصة لنتذكر شبابنا وطفولتنا، ونستعيد خبراتنا الجيدة منها والسيئة، ولندعي أننا نعرف كيف نعدّ أطفالنا للمدرسة لمجرد أننا عشنا الخبرة نفسها من قبل. ولا شك في أنّ اعتماد أنواع جديدة من المناهج والمدارس يحدث إحساساً بعدم الأمان، مع أني أعتقد أنّ الشعور الحقيقي بعدم الأمان ينبع من عدم التطور أو التغيير نحو الأفضل. إنّ المدارس بحدّ نفسها تظل كما هي، لكن المجتمعات هي التي تتغير، وغالباً ما تكون المدارس مرآة لثقافات المجتمعات وما تطمح إليه. ولا جدال في أنّ المجتمعات التي كانت قادرة على الابتكار والمحافظة عليه كانت تريد التطور وليس الحنين إلى الماضي، أعتقد هنا أنّ هناك خطراً حقيقيّاً في تمجيد الأيام الجيدة الماضية، والتّمسّك بخرافاتنا وحكاياتنا عن المدرسة، فكيف يمكننا تطوير المناهج إذا ظلت المدارس مقيدة بالذكريات؟

على الرّغم من جرأة الفكرة، أعلم على وجه اليقين أنّ إعادة النظر في المناهج ستثبت

عـدم كفايتها؛ فلا يكفي تكوين نظريـة المعرفة وإعادة تكوينها، فوجهـات النظر الاقتصادية وتوجهات المجتمع عن الدراسة في المدارس قد تدعم احتمالات التغيير أو تقيّدها؛ لأن التعليم يختلف عن غيره من الميادين؛ فهو ميدان عمليّ، ومكان تتحقق فيه أحلام الصغار أو تتحطم. إنّ الأطفـال الحقيقييـن، وأولياء الأمور الحقيقيين، ووجودهم فـي أماكن حقيقية، مع معلمين حقيقيين، ومواعيد حافلات حقيقية، ومبانيَ حقيقية، وميزانية حقيقية، كلها تحدد طريقة وضع المنهاج قيد التنفيذ، ومن المؤكد أنّ أولياء الأمور، وأعضاء مجلس المدرسة، وقادة المؤسسات التجاريـة، وواضعي السياسات، وأفراد المجتمع، يهتمون بالأطفال، ويطرح كثير منهم وجهات نظـر ضرورية عن التعليـم وقضاياه، تعدُّ هذه المجموعات مهمة وأساسية للتعليم الناجح، وقد أخذت تشارك مشاركة متزايدة في تحطيم القيود التي تقف عائقاً في وجه عملية التقدم. ومع ذلك، سوف نجد أشخاصاً يتمسكون بموروثات القرن العشرين إن لم يكن القرن التاسع عشر، وما أطلبه هو أن يغير هؤلاء مفردات رسالتهم التعليمية لتظهر اختياراتهم، وأن يكونوا صادقين تجاه الأطفال.

الخرافة الثانية: نحن أفضل حالاً إذا فكرنا كلنا بالطريقة نفسها-ولم نفكر كثيراً.

ترتبـط أمريـكا بعلاقة حب/كراهية مع المثقفين، وهي علاقة انسحبـت أيضاً على المدارس، حيـث يوجد أشخاص يستخدمون كلمة النخبة بطريقة سلبية عند الإشارة إلى الشخص العالي الثقافة الذي صنع إنجازاً مميَّزاً. ولمّا كانت التوجهات المجتمعية لأي دولة أو ثقافة تؤثر مباشرة في نظم التعليم، فإننا نحتاج إلى التفكير بعقلية المؤرخين وعلماء التاريخ البشري للحظة عند دراسـة خيـارات لطلابنا، ونحتاج أيضاً إلى أن نأخذ في الحسبـان الاتجاهات المسيطرة على نظمنا وبلادنا.

فـي كتابها (عصر الجنون الأمريكـي) *The Age of American Unreason*، حللت سوزان جاكوبـي Susan Jacoby, 2008 بـذكاء بالغ وبدقة القوى الخفية التـي بدلت التقاليد الأمريكية الأصيلـة للنقاش، والحـوار، والخطابات، والمناظـرات الحادة، التي كوّنـت الأساس للولايات المتحدة.

وقـد نمت القوى المضـادة، ونشرت ضيق الأفق والفكر التقليـدي المتشدّد، والخوف من الأفـكار الجديـدة، وهذا ما أدّى إلـى نتائج مخيفة، أمّا من يرغبون فـي الفكر العميق الواعي، فتشيـر الكاتبة إلى حقيقة أنّ النزعـة الحالية هو ربط أنفسنا بالذين نتوافق معهم أصلاً، على

الرغم من أنّ التقليد الأمريكي الأعظم هو تعمد الاختلاط بالذين لا نتوافق معهم.

أعتقد أننا في حاجة إلى العودة إلى تقليد مخالفة الرأي السائد عند وضع خياراتنا للمناهج، فأعظم القادة السياسيين الأمريكيين كانوا مفكرين تمكنوا من توفير الراحة النفسية، وتحديد الاتجاه السليم. ومن الأشخاص الذين نبجلهم كثيراً أولئك الذين تحدّونا لنتطور ونبحث عن أفكار وإمكانات جديدة، وكذلك الدفاع عن الأفكار التي احتاجت إلى حماية. وبصرف النظر عن آرائنا السياسية الخاصة، من المؤكد أنّ أفكار كلّ من أبراهام لينكولن، وجون آدامز، وفرانكلين روزفلت، وتوماس جيفرسون، وألداي ستيفنسون، ومارتن لوثر كنغ، وجون كينيدي، وباري جولد ووتر، وهانا أردنت وسوزان سنتاج - تستحق الدراسة. (حاول تذكر المفكرين في مجتمعك المهني الذين تثير أفكارهم الابتكار والتأمل).

لا يزال الاتجاه السائد في المجتمع في القرن الحادي والعشرين أنّ المثقف إنسان عاجز، حيث تؤكد جاكوبي نقطة أساسيّة؛ هي أننا نحترم موروث الفرد القوي الذي ينجح معتمداً على نفسه، ولاسيما إذا كان غير متعلم. لذلك، نرى المفكرين والمثقفين يُستهزأ بهم في الولايات المتحدة؛ حيث يُنظر إليهم على أنهم متكبرون ودخلاء. لكن حقيقة أنّ مؤسسي أمريكا كانوا من أكبر المفكرين كانت لها فوائدها الواضحة. وفي ضوء ذلك، يعدُّ الاهتمام الحقيقي والفاعل للأفكار مهمّاً وضرورياً عند تحديد المنهاج. لذا، علينا ألّا نخاف من الأفكار، وأن نشارك بانفتاح في النقاشات والحوارات عمّا يهمّ في الموضوع الدراسي.

الخرافة الثالثة: الإبداع المفرط خطير والفنون زخرفة غير ضرورية. في كتابه (عقل جديد كليّاً) *A Whole New Mind*، يؤكد دانييل هـ. بينك Daniel H. Pink , 2006 أن مستقبلنا الجماعي سوف يعتمد على المفكرين الذين يستخدمون الجانب الأيمن من الدماغ، ويقول:

> «نحن ندخل عصراً جديداً تحركه طريقة جديدة في التفكير، ومنحى جديداً تجاه الحياة؛ عصراً يحتفي بالقدرات التي أسمّيها (الفكر السامي) و(المهارة العالية). يتضمن الفكر السامي القدرة على تقصّي الأنماط والفرص، وإحداث الجمال العاطفي والفني، وصياغة نص مقنع، ودمج الأفكار غير المترابطة في شيء جديد. وتتضمن المهارة العالية القدرة على تفهم الآخرين، وفهم مهارة التفاعل الإنساني، ونشر الفرح في حياة المرء نفسه وإثارتها في الآخرين، والذهاب إلى أبعد من المألوف في السعي وراء الغاية والمعنى».

obeikandi.com

ولا يجب أن يؤكّد المنهاج الأدوات الضرورية لتطوير البناء المبرر والمنطقي للمعرفة الجديدة في مختلف حقول الدراسة الواسعة فحسب، بل إنّ على القائمين على إعداده السعي بقوة لتشجيع الثقافة التي تغذي الإبداع عند الطلاب جميعاً، وتبدو هذه النقطة على وجه التحديد مهمة؛ ففي الوقت الذي يصعب فيه تغيير المؤسسات التعليمية، تسهم الروح المحافظة في تأخير تعليم الأطفال وحياتهم. لذا، يجب تقدير المفكرين الذين يفكرون خارج المألوف، أو الذين لا حدود لتفكيرهم عند البدء بتخطيط التصاميم الإبداعية لمنهاجنا ومدارسنا.

لا يزال منهاج الفنون -على وجه التحديد- يقبع في آخر أولويات المدارس، وهذا يترك كثيراً من الطلاب ضمن آخر الأولويات أيضاً. لذا، سنخسر جميعاً؛ حيث يسود رفض وامتعاض تجاه الفنانين ما لم يحققوا أرباحاً مالية استثنائية، فكما يقول ماكسين جرين Maxine Greene: «الفنانون يكشفون الاستثنائي في المألوف» Greene, 1989, p. 215؛ لذا، علينا أن نغيّر مسارنا لتشجيع الطلاب على المخاطرة من حيث التعبير فنيّاً وابتداع الأفكار، وهذا ما يفعله المفكرون؛ فهم مبدعون، وخلّاقون، ويشكّلون الأفكار تماماً مثلما يضع النحات الصلصال على المنضدة، ويبدأ بالتجريب في الأشكال والمواد.

نحن لا نسعى إلى رعاية الأطفال فقط، بل البالغين أيضاً الذين يملكون أفكاراً جريئة واتجاهات جديدة، وفي سعينا لتحسين العملية التربوية، علينا أن نتحلى بالشجاعة في الدفاع عن الأفكار الإبداعية العملية والعقلانية والبنّاءة.

obeikandl.com